Journal of Language Studies **Vol. 4, No. 1, Autumn 2020, Pages (171- 183)**

ISSN: 2663-9033 (Online) | ISSN: 2616-6224 (Print)

Journal of Language Studies

Contents available at: http://jls.tu.edu.iq

The Eloquence of the Tools of Attack and Defense in *Surat Al-Feel*

Dr. Mahmood Khalif Khudair _ Northern Technical University *
E-mail: _emaf_1979@yahoo.com

Asst. Instr. Thaker Abdul Latif Aboush _ Northern Technical University
E-mail: Thakeraboush66@gmail.com

Keywords:

Tool

elephant

bird

Stone

struggle

Article Info

Article history:

Received: 16-8-2020

Accepted: 22-9-2020

Available online

Abstract

The tools of war in *Surat Al-Feel* functioned according to a struggle between man's strength and might, on the one hand, and the deadly, great and effective weapons that could be used by him and their destructive consequences that were evident in the use of the elephant to demolish the *Kaaba* and what the Qur'an provided for describing the requirements of defending the house of Almighty God, which is Represented in the bird of *Ababee*l. If we want to measure this with human capabilities and the laws of nature, it appears as a small bird that has no significant effect, but the miracle of Almighty God and His strategy in harnessing a small animal to defend and resolve the battle in His favour transforming the enemies into "an empty field of stalks and straw' (of which the cotn) has been eaten up. The bird, in contrast to the elephant's enormity, strengthened the belief that God Almighty is capable of everything, for it is by his power that a miracle can occur that puts strength and will in the weakest of his creation.

* **Corresponding Author**: Dr. Mahmood Khalif Khudair **E-Mail:** emaf_1979@yahoo.com
Affiliation : Northern Technical University -Iraq

Journal of Language Studies **Vol. 4, No. 1, Autumn 2020, Pages (171- 183)**

بلاغة ادوات الهجوم و الدفاع في سورة الفيل

د. محمود خليف خضير الحياني _ الجامعة التقنية الشمالية / العراق
م.م ذاكر عبد اللطيف عبوش _ الجامعة التقنية الشمالية / العراق

الكلمات الدالة:-

اداة
فيل طير
حجارة
صراع

معلومات البحث
تاريخ البحث:
الاستلام:16-8-2002
القبول: 22-9-2020
التوفر على النت

الخلاصة: اشتغلت ادوات الحرب في سورة الفيل على وفق صراع بين قوة وجبروت الانسان ، وما يمكن أن يستعين به من اسلحة فتاكة، وعظيمة وذات تأثير ونتائجه التدميرية التي تجلت في الاستعانة بالفيل لهدم الكعبة وما قدمته السورة القرآنية من وصف لمتطلبات الدفاع عن بيت الله سبحانه وتعالى الذي تمثل في طير ابابيل الذي اذ اردنا أن نقيسه بالإمكانيات البشرية ونواميس الطبيعة ، فإنه يظهر حيوانًا صغيرًا وليس له تأثير يذكر ، ولكن معجزة الله سبحانه وتعالى واستراتيجيته في تسخير حيوان صغير في أن يدافع و يحسم المعركة لصالحه محولا الاعداء الى عصف مأكول ، فالقوة التدميرية لحجارة الطير بالمقابل لضخامة الفيل عززت من الايمان بأن الله سبحانه وتعالى قادر على كل شيء فهو بقدرته يمكن أن يحدث المعجزة التي تضع القوة والارادة في اضعف خلقه، فكان صراع الفيل والطير لصالح الاصغر حجما وتأثيرًا ، لذلك فالبحث يكشف عن هذا الصراع وكيفية انتهائه .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (5)

يظهر " لكل متدبر أن موضوع سورة الفيل يدور حول تذكير مشركي أهل مكة وما حولها أبان التنزيل ، بما انزل الله عز وجل من عذاب وأهلاك بأصحاب الفيل ، الجيش الذي قدم من اليمن بقيادة أبرهة الحبشي والذي جاء قاصدا تدمير الكعبة بيت الله الحرام "[1] ، إذ يعدّ هذا النص القرآني من أسمى وابدع ما جاء به الاسلوب القرآني من التصوير والتعبير عن المعنى بإيجاز شديد ، ويمثل النص القرآني في أصله رسالة وخطابًا يريد أن يوصل فكرة مهمة يدور

حولها النص كله ، إذ يبدأ الاطار العام التي تم إيجازه في هذه المعركة والعدوان في قصـــة أصحاب الفيل بمضامين وعناصر وعناوين كبرى التي يمكن أن نحصرها في أربعة عناوين :

العنوان الأول العام : ما فعل الله سـبحانه وتعالى بأصـحاب الفيل ، وهذا إشـارة إلى مقدمهم إلى مكة بجيش ، بغية هدم الكعبة ، بيت الله .

العنوان الثاني : إنهم دبروا كيدًا ، فجمعوا جيشًـــا وســـلاحًا وأعتدة وقدموا من اليمن ، فجعل الله كيدهم في تضليل ، أي : في ضياع وباطل وهلاك ، فضيع أسبابهم ، وابطل وسائلهم واهلكهم .

العنوان الثالث : إن وســيلة إهلاكهم وتعذيبهم ، قد كانت بإرســال جماعات من الطيور ، تحمل بأرجلها ومناقيرها حجارة من سجيل .

العنوان الرابع : إن عاقبتهم في الدنيا قد كانت عذابًا وإهلاكًا ، وصـــاروا فيه كعصـــف مأكول ، وهذا التشبيه يدل على أنهم صـاروا على أصـناف ثلاثة : فصـنف منهم تفسخ وانتن وتحول حتى صـار كروث الدواب ، وصـنف تجمع متحطمًا ، متداخلًا بعضـه في بعض ، كالحشـيش والزرع الذي أكلت الدواب ما استطاعت منه ورمت سائره ، فداسته ، ومرت عليه ذهابا وعودا ، وصنف كالأعواد التقطت منها الدواب الأوراق الصالحة للأكل فارتمت الأعواد متناثرة هنا وهناك[2] .

وسنقتصر الحديث عن الألفاظ الخاصة بأدوات الحرب التي يقدمها لنا النص منذ اللحظة الأولى ويبرز ذلك في عنوان النص القرآني . أداة أولى ألا وهي (ســـورة الفيل) ثم بعد ذلك ينتقل إلى ذكر هذه الأداة داخل سياق الآيات القرآنية لكي تمثل أداة ثانية في الآية الأولى (أصـحاب الفيل) ، فضـلًا عن هذه الأداة التي تكررت في العنوان وداخل سـياق النص فإن هناك أداة أخرى وثالثة تمثلت بـ(طيرا أبابيل) ، اضافة إلى أداة الرابعة التي تجلت في قوله تعالى (حجارة من سجيل) .

وبالموازاة بهذا الترتيب الرباعي لذكر أدوات الحرب ، فإننا وبصـــورة أخرى يمكن أن نقســـم هذه الأدوات إلى أدوات خاصة بالعدو والتي ذكرت مرتين (الفيل) وأدوات خاصة بالدفاع وصد الهجوم عن بيت الله الحرام (الطير ، والحجارة) ، ولو اردنا أن نبدأ في تحليل كل أداة ، فإننا يمكن أن نبدأ بالأداة الأولى وهي الفيل المرتبطة بالطير .

استراتيجية الفيل الهجومية وتكنيك الطير الدفاعي

لقد وردت لفظة الفيل في موضعين في هذه السورة القرآنية ، الموضع الأول وهو عنوان السورة ، اذ سميت بسورة الفيل ، والموضع الاخر الثاني في سياق النص القرآني في قوله تعالى (أصحاب الفيل) ، وإذ تأملنا لفظة الفيل والتي هي العنوان الرئيس للسورة فإننا نلاحظ أن لها دلالة إيحائية خاصة بها ، وذلك لأن " العنوان مجموعة من العلامات اللسانية التي يمكن أن ندرج على راس نص ما لتحدده ، وتدل على محتواه "[3] ، وبذلك فإن وظيفة العنوان في النص تتمثل في الدلالة الإيحائية والتدليلية[4] ، فإيحاءات كلمة الفيل في هذه السورة تحمل لمسة جمالية وعجائبية فعنوان

السورة ، سورة الفيل قد عمل على إعطاء أو اضافة معانٍ عدّة على محتواه النص القرآني، فالمعنى الأول هو المرتبط بالإحالة إلى الخارج أو الحدث الحقيقي ألا وهو مجيء الفيل ومحاولته الوصول إلى شبه الجزيرة العربية والتي هي في الحقيقة منطقة صحراوية جرداء ولم يكن للفيل فيها حضور ولم يكن العرب يعرفون الفيل حتى إنه لم يشكل هاجسا من هواجس الطبيعة الصامتة والمتحركة التي ذكرها الشعراء الجاهليين في أشعارهم(*) ، فكل الطبيعة التي ذكرها الشعراء لم تنطوي على ذكر الفيل وبذلك يعدّ القرآن الكريم هو أول من ذكر لفظة الفيل في ذلك العصر قبل بعثة الرسول ، أما الدلالة الأخرى للفيل والتي تمثلت في حضورها في سياق الآيات القرآنية وارتباطها بالحدث العظيم والأمر العجيب الذي يمثل تحدي لقدرة الله من قبل أبرهة الحبشي في محاولته هدم الكعبة ، فعظمة دور الفيل من حيث حجمه الكبير وقوته التي لم تألفها الذاكرة العربية حتى في الأحلام اضفى هالة كبيرة على الحدث ألا وهو الحدث العظيم عند العرب في هدم الكعبة وحدوث المواجهة بين الفيل العظيم وطير أبابيل الذي ظهر وهو يحمل حجارة من سجيل صغيرة والتي حسمت المعركة بقدرة الله سبحانه وتعالى(5) ، فالمقياس الدنيوي في حسم المعارك من حيث القوة والعظمة تم دحرها بقوة الله وبذلك تشكل هذه السورة رسالة إلى المسلمين الذين كانوا يحسبون أنهم مستضعفون أن إيمانهم بالله هو القوة ، فأرسال الطير المادي والموسوم في سورة الفيل هو في الحقيقة يبعث قوة معنوية للمسلمين وتطمينهم بأنهم ليس وحدهم ، ولعل بداية السورة التي يتقدمها الاستفهام المرتبط بالنفي في قوله تعالى " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل " هو نوع من التقرير بصدق القصة مع الأيمان بقوة الله سبحانه وتعالى ، ولكن أن ما يهمنا في سياق هذه الآية هو حضور لفظة الفيل التي لها دلالة تختلف عن دلالة لفظة الفيل في العنوان ، وذلك لأن العنوان كان " قائما على انتقاء حر ، لا تقيدها تراكيب لغوية أو نحوية ، تدفعها إلى التشكل على وفق صيغ محددة "(6) للمعطيات النحوية والتركيب السياقي في هذه النص القرآني. فإن التقيد التركيب الذي يربط لفظة الفيل مع الكلمات الأخرى التي تشكل الجملة التي وردت فيها لها معان تختلف عن كون أن عنوان السورة أحالنا إلى دلالة خارجية ومعطيات تاريخية ، ولكن ما يمكن أن يكشفه سياق الجملة الاستفهامية هي ما يمكن أن تضيفها أو تصفها من حالة التعجب والدهشة، إذ إنه من حسن الابتداء الاستفهامي التعجبي يرتبط بمناسبة المقام أو مقتضى الحال بالنسبة للمتلقي ، اذ إن بداية " السورة بهذا الاسلوب لم تأت بالأخبار بقضية يجهلها المسلمون . وإنما كانت تذكيرا بأمر يعرفونه ، وصولا إلى ما وراء هذا التذكير "(7) ، وأن هذا الاسلوب الاستفهامي متكررا في القرآن

الكريم وذلك على سبيل الخطاب الإفرادي الموجه ، لكل فرد صالح للخطاب حتى يشعر بأن الله عز وجل يحادثه حديثا موجها له، بغية تحميله مسؤولية تجاه مضمون الخطاب بصورة فردية[8] ، لذلك بدأت الآية بالاستفهام التقريري المتجسد في اقتران طرف الاستفهام (الهمزة) بأداة النفي (لم) واكثر الصور التي تدخل فيها الهمزة على حرف النفي تفيد الأثبات ، وذلك لأن الطلب ليس الأخبار عن عدم الرؤية ، بل هو مستعمل مجازا لأغراض كثيرة في هذه الآية :

1 . التقرير ، يحمل المخاطب على الإقرار بأنه رأى . رؤية علم .

2 ـ توجيه النظر الفكري للمستفهم عنه ، بغية إحضاره في الذهن والاعتبار والاتعاظ به .

لذلك كان الجوب بلفظ (بلى) ، التي يراد بها الإقرار بحدوث الرؤية بالمعنى : قد رأيت أيها الرائي عن طريق الشهود البصري ، أو عن طريق العلم اليقيني الخبري ، المماثل للرؤية البصرية[9] ، كيف فعل ربك بأصحاب الفيل من تعذيب وهلاك ، وبذلك قد أفادت أداة الاستفهام التي خرجت في أسلوب مجازي هو التقرير والإقرار بعلم الشيء ورؤيته ،و اذ انتقلنا إلى كلمة (تر) نتلمس أن لها دلالة الرؤية التقريرية مع أداة الاستفهام ، اذ جاءت كلمة (تر) بصيغة الفعل المضارع والتي ترتبط بالحادثة في الواقع الحقيقي والتي لم يمض على حدوثها ألا اقل من نصف قرن ، وقد عاصرها وشهد أحداثها كثير من اهل مكة وما حولها[10] ، والفعل المضارع في هذه الآية يختزل ويكثف حضوره الواقعي كأنه حضور حاضر يراه الرسول صلى الله عليه وسلم كأنه حدث الآن أمامه ، ولكن دلالة الجزم والنفي قد أعطت بعدا جديدا للمعنى للتدليل على آثار الشيء ، فاذا قرات (الم تر) يكون " الرأي للجد في اظهار أثر الجازم ، والمعنى : أنك رايتا ثار فعل الله بالحبشة وسمعت الأخبار به متواترة ، فقامت لك مقام المشاهدة "[11] ، ويمكن القول إن التعاضد والترابط وانسجام المعنى المجازي للاستفهام ، وأداة النفي التي تفيد الجزم والنفي والقلب من دلالة المضارع إلى الماضي والأثر الجازم الذي تتركه في الفعل من حيث حذف حرف العلة والسكون ، يفيد الإشارة إلى أن الخبر به متواتر ، فكان العلم الحاصل به ضروريا ومساويا في القوة والجلاء للرؤية : اذ إن دلالة الفعل المضارع المسبوق بأداة النفي الجازمة (لم) يشير إلى أن الرؤية التي قدمها النص القرآني للحدث بأنها تصديقية وأن كانت لم تحدث الآن وحدثت في الماضي ، ولكن مادام نقل الكلام صادق ، وكيف وأن كان الكلام كلام الله ، فإن هنا الرؤية يقينية ، لذلك استخدم هذا الاسلوب وهو كثير في القران الكريم . وأن الأخبار الذي أراده من هذا الخطاب ليست قصة عادية ولكنها قصة هدم الكعبة وأرسال الله سبحانه وتعالى عليهم طير أبابيل ، وهذه الحادثة لم تكون بعيدة عن الذاكرة كما في قصص الأنبياء التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في القران الكريم ؛ لذلك جاء الابتداء " ليؤدي دوره النفسي في أحداث الأصغاء وشد

المتلقي إلى التجربة والتفاعل معها . أن يتضمن صورة فعالة ونشطة ، قادرة على أيقاظ السامع ولفت انتباهه وأثارة الانفعال المناسب عنده "[12] ، ولكي يبغى المتلقي مشدودا فقد تلا الاستفهام الأول استفهام " ثان بـ(كيف) التي وردت للسؤال عن الحال ، أي كيف حالهم وكيف فعل الله بهم ، وهنا يتجلى الاستفهام الحقيقي ويبدأ التعجب والاندهاش بالزوال والكشف عن تفصيلات هذه الحادثة التي بدأت بالأجمال الشديد حيث تم المقصد في إبانة الفعل"[13]

ولو لاحظنا أداة الاستفهام (كيف) في هذه الآية وعلاقتها بالذي بعدها وليس بالذي قبلها أعرابيا ، لتبين لنا دقة اختيار الكلمة ودلالتها على المعاني والمواقف والحالات ، اذ إن كلمة (كيف) غنيت الدلالة من حيث أعرابها في هذا السياق بأنها " مفعول مطلق في محل نصب ، وفعله (فعل ربك) والمعنى الم تر فعل ربك بأصحاب الفيل فعلا ذا حالة رهيبة فيها اعتبار ووعظة ، وذا كيفية عجيبة وسخرت فيها جماعات من الطير "[14] ، وبذلك يكون لدينا استفهامان الأول بالهمزة وقد خرج إلى معنى المجاز ، والثاني كيف وقد خرج إلى معنى المفعولية المطلقة ، وكذلك اصبح لدينا فعلان فعل الله وتوكيده عن طريق الحال ، وكأن المعنى هو أن (كيف) الغنية بالمعاني قد أعطت معاني كثيرة ، المعنى الأول هو الاستفهام الحقيق والذي دل على التعجب والدهشة ، والمعنى الثاني هو (الفعل) وذلك عن طريق دلالة الأعراب المرتبطة بإعرابه (مفعول مطلق) والذي ينقلنا إلى دلالة أخرى وهي دلالة المفعول المطلق الذي يفيد دلالة التوكيد، والحالية، والعدد[15] ، وقد جاء دلا على التوكيد وذلك لأن كيف أفادت التكرار بالمعنى الفعل ألم تر فعل ربك بأصحاب الفيل فعلا ، وكذلك (كيف) دلة على أشياء " لها كيفيات باعتبارها يدل على مداومتها وهذه الكيفية هي التي يسميها المتكلمون وجه الدليل ، واستحقاق المدح ، إنما يحصل برؤية هذه الكيفيات لا برؤية الذوات . ولذا قال " "أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها " ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته "[16] ، ثم جاءت كلمة (فعل) وذلك لدلالات كثيرة بعد (كيف) والتي أفادت (التوكيد ، والكيفية) وإظهار لمعنى الكيفية وذلك في دلالة كلمة (فعل) والتي هي لفظة تدل على (الكل) إذ قد أفادت في هذا السياق معان عدة منها معنى (الخلق) والتي تستعمل لابتداء الفعل ، و(جعل) للكيفيات ، و(عمل) بعد الطلب ، وذلك لأن (الفعل) وهي لفظة (عامة) تدل على ما فعل الله بأصحاب الفيل فأحتاج إلى كلمة تجمع هذه المعاني ، لأن الله (سبحانه وتعالى) خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه ، وسألوه أن نحفظ السبب ، ولعله كان فيهم من يستحق الإجابة ، فلو ذكر الألفاظ الثلاثة لطال الكلام ، فذكر لفظا يشمل الكل[17] ، وعند توقفنا عند كلمة (ربك) لندرك أسرارها ، والذي يرتبط بإبراز المعنى وتناسقه مع السياق العام لكلمة (فعل) وتركيبه مع كلمة فعل ربك ، لغرض التعريف ، اذ أن التعريف أنواع ، ولكن التعريف بالضمير بأنواعه له قيمة فنية كبيرة ، يرتبط بالمعنى والسياق العام للسورة ، وإذ دققنا في كلمة (ربك) التي كان اختيارها قائما على

(ضمير الخطاب) والذي له وظيفة فنية في أداء المعنى من حيث أن الله سبحانه وتعالى لم يقل الرب في سياق هذه الآية إنما قال (ربك) الذي دل على المعنى المقصود في وجوه عدة " أحدها كأنه تعالى قال أنهم لما شـــاهدوا هذا الانتقام ثم لم يتركوا عبادة الأوثان ، وأنت يا محمد ما شاهدته ثم اعترفت بالشكر والطاعة ، فكأنك انت الذي رأيت ذلك الانتقام ، فلا جرم تبرأت عنهم واخترتك من الكل ، فأقول ربك ، أي أنا لك ولســـت لهم بل عليهم ، (وثانيها) كأنه تعالى قال : إنما فعلت بأصـــحاب الفيل ذلك تعظيما لك وتشـــريفا لمقدمك ، فأنا كنت مربيا لك قبل قومك ، فكيف اترك تربيتك بعد ظهورك ، ففيه بشارة له عليه السلام ، بأنه سيظفر "[18] ، وبعد السؤال عن الحال والكيفية والتشويق الذي كونه أسلوب الاستفهام يبدأ الكشف عن تفصيلات هذه الحادثة عن طريق ذكر الأداة الرئيســة للحرب عند الأعداء ألا وهي الفيل ، والتي هي تمثل أداة رئيســية في الحرب ويمكن أن تحسم المعركة ، إذ إن أشارتها توحي بالقوة والأعداد الحربي ذلك لما للفيل من " فضــل في الحرب فهو يحمي الجماعة وله من الهول ما ليس للفرســان والخيل وهو احســن مطاوعة ، ولا يعرف بجماح ولا طماح ولا حران "[19] ، فضـــــلا عن ما ذكرناه فإن الفيل قد ترك أثرا كبيرا ومخيفًا ورهيبًا في نفوس العرب حتى إنهم اطلقوا على ذلك العام عام الفيل؛ لأنهم لم يألفوا الفيل في القتال حتى وصولها إلى مكة [20]، وإذ اردنا أن نعود إلى سياق اختيار كلمة الفيل مع أصحاب (أصحاب الفيل) ، فإنها قد أضفت دلالة إلى الأصحاب في كونها قد رفعت مرتبتها من أداة عادية مادية محســوســة إلى أداة خرافية وأســطورية يثق بها أصــحاب أبرهة في تحقيق مرادهم وكأنه أملهم كان على هذا الفيل في الانتصـار ، فجاء ذكر الفيل مع الأصـحاب وتسـاوى معهم وتساوا معه في الرتبة وصاحبهم واصبح امل أبرهة في فعلتهم لهدم الكعبة ، فبذلك اصبح الفيل من جنس جنود أبرهة ، وكأنه جند مأمور ينفذا أوامر أبرهة ، وذلك عن طريق الســايس ، ونظرا لهذه الثقة العمياء بالفيل حتى أصبح الفيل[*] هو في الحقيقة القائد الميداني بدلنا من أبرهة لكونه اصــبح بطل الحدث المذكور في القرآن ، وهو الذي يقدهم وليس هم الذين يقودونه ، وذلك من شدة حبهم وتعلقهم بهذا الفيل نشأة صحبة بين قائدهم والفيل ، وعلى مبدأ التساوي في الجهل وتوقف التفكير وعدم التمييز بين الصح والخطأ . فتساوى الفيل الحيوان مع جند أبرهة الأنسان ، فكانت الصــحبة على أســاس المقام الواحد فكانوا (أصــحاب الفيل) وهي الدلالة التي أكد عليها المفسرون في أن هؤلاء القوم كانوا " من جنس الفيل في البهيمة وعدم الفهم والعقل "[21] وفي عدم معرفة ظروف الحرب والتخطيط الجيد لها واعتمادهم على أدوات مادية محســوســة متناســين أن النصــر من عند الله تعالى، فضــلا عن البهيمية فإن اضــافة الفيل إلى الأصــحاب أفاد معنى التخصـــص والتأكيد على جرمهم المنشـــود والتذكير بعظمة " جرمهم بافترائهم على حرم الله ، وألفات نظر قريش إلى أن الذي حمي جيرانه وهم من الشـــرك والكفر وحفظ بلا فهم ، أولى أن يحفظهم أن امنوا برسوله ودينه الذي ارتضـى "[22] ، وهذه الدلالة التعريف بالإضـافة ، أما دلالة

التعريف (بال) وقوله تعالى (أصـــحاب الفيل)، القائمة على دلالة التعريف في كلمة الفيل تفيد معنى العظمة والقوة والبطش ، إذ إن بعض الروايات تذكر بأن الفيل كان ضخما وكبيرا جدا جلبه أبرهة لهدم الكعبة ، وتمثل دلالة التعريف الكثرة ، إذ إنه لم يكن فيلا واحدا ، إنما عدة فيلة ، ويمكننا القول ومن خلال دلالة التعريف أنهم عدّة فيلة يقودها فيل ضخم وعظيم إلى هدم الكعبة. وبعد كل ما ذكرناه من عدة الحرب وإداوتها وتجهيزها بالنسبة لأبرهة والتي كان أبرزها الفيل فإنها ضمن المقاييس العسكرية في ذلك الزمان يمثل جيشا جبارا لا يهزم ، ولكي يحاول النص القرآني كشـف هذه القوة وما تنطوي عليه من اسـتعداد ، فإنه بدأ باسـتفهام ثالث في قوله تعالى " ألم يجعل كيدهم في تضـليل " وهذا الاسـتفهام يمثل أثبات وتقرير عن اقوى أنواع التقرير وهو التقرير بالمنفي وأن اسـتخدام التعبير القرآني كلمة (كيدهم) وليس غيرها ، لأنها الأنسـب في الدلالة على المعنى في رسم صورة استعدادات العدو وهي كلمة توحي بـــ" كل ما دبروه واعدوه ، من خطط ووســـائل وأعمال وجيش لا قبل لقبائل العرب به ، بقية هدم الكعبة بيت الله الحرام ، وتحويل العرب عن الحج اليه "[23] ، ولو عدنا إلى كلمة الكيد في ســياق الآية القرآنية فإنها تنطوي على معان عدة منها الكيد مقابلة الخصــم للخصــم ويكون ذلك أما بوســائل المجابهة العلنية ، أو أن يكون بالأشـياء التبينية ، ولا تأتي الأشـياء التبينية ألا اذا كان الخصـم غير قادر على أن يتغلب بالمواجهة ، فيعمل كيدا أذن ، فالكيد وسـيلة من وسـائل الانتصـار على الخصـم الذي اعجزه أن ينتصـــر عليه بالمواجهة[24] ، وفي الاطار العام للنص القرآني نلاحظ أن كلمة الكيد " دائما في خفاء لكن هذا الخفاء بين المؤمن والكافر أو الذي على وجه حق والذي على وجه باطل ، هو بالنســـبة لعدوه المواجهة يعتبر كيدا أو يمكن فخبئ عني طرائقه . إنما الذي واقف في جانب الحق أو في جانب دين معين ، ليس وحده له رصـيد من السـماء شـيء آخر .... يبقى أذن هذا الكيد ليس كيدا لأنه سـيبقى مفضـوحا ومكشـوفا ... انت تعني على البشـر في كيدك إنما أذ كان هذا البشـــر ليس هو المواجه الوحيد بل وراءه اعلى يبقى أذن مكشـــوف "[25] عند الله ســـبحانه وتعالى ، وهكذا تكون عدة الأعداء كيدا مكشـــوفا ولم يصـــل إلى نتيجته أو إلى غايته في هدم بيت الله الحرام ، وما دام كيدهم لم يصـــل إلى النتيجة التي جاءت من أجلها الجيوش فإنها " في تضليل " أي " في محيط من الضياع والهلاك والتبديد والتشتت "[26] الذي لا يصل إلى نهاية.

وحتى يتم القضاء على هذا العدو الذي جاء بالفيل والعدة الحربية والذي يعدّ خصما عظيما يملك خطط وتدابير لهد بيت الله الحرام ، فإن الله سـبحانه وتعالى ارسـل اليهم " جندا من جنده التي لا يحصـــيها ألا هو ، وكانت يومئذ جماعات متلاحقات من أصـــناف الطير "[27] ولو تأملنا كلمة (طيرا) النكرة ، فإننا نلاحظ أنها جاءت على صـــيغة النكرة والتنكير والتي جاءت " أما للتحقير فإنه مهما كان احقر كان صـــنع الله اعجب واكبر ، أو للتفخيم كأنه يقول طيرا واي طير ترمي بحجارة صـغيرة فلا تخطيء المقتل "[28] ، وبذلك تكون دلالة التنكير للتصـغير ليبين الله سـبحانه

وتعالى أن اصغر مخلوقاته يمكن أن يكون أداة فتاكة تقضي على اقوى جيش مجهزا بعدة وسلاح وحتى وأن كان سلاحه عجيبا وغريبا كالفيل ، ولكن ما يمكن كشفه في أن الأعجب من هذا الفيل هو رد الله سبحانه وتعالى عليه بطير صغير والذي يعد جنديا من جنوده يحمل في رجليه أداة قتالية عجيبة وغريبة تضيف نوعا من الأعجاز والمعجزة ألا وهي (حجارة من سجيل) أذ بدأ هذا الطير الصغير بقذفها وإلقائها على العدو حتى كانت نهاية المعركة ولقد تحول العدو إلى عصف مأكول[29] ، ولعل ما يمكن أن نكشفه في أن كلمة (حجارة) جاءت في النص القرآني على صيغة نكرة أيضا وذلك لكي تكشف الآية غموض وصغر حجم هذه الحجارة التي قضت على ترسانة من الأسلحة القوية وعلى رأسها الفيل ، حتى إن هذه الحجارة لم تصب أحدا ألا وأن خرجت من الجانب الآخر من عضوه مسببة وباء يفضي إلى حكة يتساقط لحمه من خلالها ، لذلك جعل القوم كالعصف المأكول في قوله تعالى " فجعلهم كعصف مأكول " ، وما يهمنا من هذه الآية الأخير هو الصورة التشبيهية العجيبة والغريبة " كعصف مأكول " الذي يدل على جنود أبرهة " صاروا على أصناف ثلاثة : صنف تفسخ وانتن ، وصنف تجمع متحطما ، وصنف كالأعواد التقطت منها الدواب الأوراق الصالحة .."[30] ، وإذ حاولنا أن نفسر هذه الصورة التشبيهية فإنها تكشف أن جنود أبرهة تحولوا إلى شيء يأكل أو شيء صار كالروث وفي كلا الحالتين . فإنهما يدلنا على التلاشي وفقدان الخصوصية الحية للشيء وهو ما يعبر عن مدى ضياع صورتهم الآدمية إلى حالة أخرى لا مرئية ، فالتشبيه عبر عن ما يأكل أو يراث أو بما وقع فيه الأكال ، وفي الحالتين فإن الصورة تظل من الأثارة بمكان من حيث المظهر الخارجي من جانب ، ومن حيث النهاية الكسيحة من جانب آخر ، فالنهاية الكسيحة تكفي في أن كلا الروث أو النبت المأكول يجسد تلاشي الشيء وفقدانه لكل خصوصياته الحية ، وأما من حيث المظهر الخارجي فإن السمة البائسة تظل هي الملفتة للنظر . وهل ثمة مظهر مثل الروث أو النبت الأكيل يستدعي الرثاء والأشفاق عليه من حيث الفقدان للحيوية ؟ وهذا الفقدان للحيوية أدى إلى تناسب بين الصورة من حيث الموضوع وهو هدم الكعبة من خلال الزحف اليها . ونحن اذا دققنا النظر في النصوص القرآنية الكريمة التي تجسد أقدام الكفار أو الباغين على عمل المنكرات ، فإننا نلاحظ أن النهايات التي رسمتها النصوص القرآنية لهم متماثلة في تحديد النهايات للمنحرفين ، ألا أنها لم تصل إلى أن تشبه بالعصف المأكول ألا هذه الفئة المنحرفة التي حاولت أن تهدم الكعبة ، إذ إن كل نهاية للكافرين تتناسب مع الموضوع لأن الجزاء من جنس العمل ، فحركة هذه الفئة الضالة اقترنت بنوايا خاصة وبعملية زحف لهدم الكعبة ، وأن كل واحدة منها نستتبع نهاية متجانسة مع طبيعتها ، فالقصد أو النية هدم الكعبة والحركة الفعلية لتحقيق الهدم هو العملية العسكرية المقترنة باستعراض العضلات والقوة والذي تطلب رسم معالم الهزيمة التي صورة النهاية الفظيعة لهم ، فالتفتيت، والروث، والأكال تقابل جمع الحشد العسكرية ونهايته

المهلكة ، وهو الروث والنبات والعصف والذي يجسد مظهر الذل والبائس والقذارة التي حطمت غرور القوم ونواياهم وغطرستهم[31] التي انتهت بهذه الصورة التي حملت معجزة إلهية.

وخلاصة مما تقدم في هذا البحث فإن استراتيجية الصراع بين الفيل والطير انطلقت من حسابات دنيوية ، فظهور الفيل بوصفه سلاحا فتاكا تم ادخاله إلى المعركة وهجوم ابرهم على مكة ، والذي مثل صدمة كبيرة ومفاجئة اربكت الانسان العربي ، وعملت على خلخلة استعداداته الدفاعية ، فحضور الفيل غير حسابات الحسم من حيث النصر والخسارة ، فاستسلم العربي لمحاولة جيش ابرهم في الهجوم بيت الله الحرام وهدمه ، ولكن ما مثل المفارقة التي قلبت موازين المعركة لصالح الدفاع عن بيت الله الحرام في ظهور طير ابابيل والتي حاولت الآية القرآنية أن تشير إلى حجم ، وفعل هذا الطير الصغير الذي بدأ الهجوم على اقوى حملة أو جيش حاول أن يخترق الصحراء العربي ، ويهدم بيت الله ، فكان الهجوم المباغتة في قذف حجارة صغيرة من سجيل حولت جيش ابرهم إلى عصف مأكول، وتم تلاشيه خلال مدة صغيرة وأن البلاغة القرآنية التي صورة هذا المشهد بكل دقة واستعانة بأساليب بلاغية متنوعة من حيث التعريف، والتنكير، ومجازية الفعل والاستفهام والاستعانة بالإيجاز في اختزال هذه المعركة التي مثلت معجزة .

الهوامش

---

[1]. معارج التفكير ودقائق التدبر ، تفسير تدبري للقران الكريم ، عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني : 8 ، ومن يريد الاستزادة ينظر الكشاف ، للزمخشري : 1221 ، وتفسير أبي السعود، ابو السعود العمادي : 6 / 471 ، وتفسير اليعقوبي، اليعقوبي : 1436 ـ 1435 .

[2]. ينظر: معارج التفكير ودقائق التدبر : 14 ـ 15 .

[3]ـ شعرية عنوان كتاب الساق على الساق في ما هو القريان ، الهادي المطوي ، مجلة عالم الفكر ، مج 238 ، ع1 ، 1999 : 456 .

[4]. ينظر المصدر نفسه : 457 .

(*)ـ يمثل الفيل حيوان عجيب وغريب عن بيئة شبة الجزيرة العربية ، إذ إنه لم يذكر في شعر العصر الجاهلي ، ولكن بعد ذلك ولاسيما في العصور المتقدمة بعد الإسلام وخاصة في العصر العباسي فقد أجادوا الشعراء العباسيين في وصفه حتى إنهم رسموا له صورا كاريكاتيرية مضحكة ، ينظر الحيوان في العصر العباسي ، عامر احمد ابراهيم ، كلية الآداب جامعة الموصل، قسم اللغة العربية ، أطروحة دكتوراه، إشراف حسين يوسف حسين ، 1996 : 7 ـ 9 .

[5]. ينظر: الكشاف : 1221

[6]ـ شعرية عنوان كتاب الساق على الساق في ما هو القريان ، الهادي المطوي ، مجلة عالم الفكر ، مج 238 ، ع1 ، 1999 : 458 .

[7]. حسن الابتداء والانتهاء في سور القرآن الكريم ، وفاء فيصل : 178 .

[8]. ينظر: معارج التفكير ودقائق التدبر : 15 .

[9]. ينظر: حسن الابتداء والانتهاء في سور القرآن الكريم : 178 .

[10]. ينظر: معارج التفكير ودقائق التدبر : 8 ، وتفسير اليعقوبي : 1435 .

[11]. تفسير الكشاف : 1221 .

[12]. الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية ، مجيد عبد الحميد ناجي : 91 .

[13]. حسن الابتداء والانتهاء : 179 .

[14]. معارج التفكير ودقائق التدبر : 16 .

[15]ـــــ ينظر: النيابة في المفعول المطلق في القرآن الكريم ، دراسة نحوية دلالية ، سالم احمد ناصر ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، إشراف عماد عبد يحيى الحيالي ، 2004 : 163 ـ 167 .

[16]. تفسير الكبير(الرازي) ، الإمام فخر الرازي : 97 .

[17]. ينظر: تفسير الكبير : 98 .

[18]. المصدر نفسه : 98 .

[19]. الحيوان في الشعر العباسي ، عامر أحمد ابراهيم : 63 .

[20]ـــــ ينظر: الفاظ الحيوان والنبات في القران الكريم ، دراسة دلالية ، فخري احمد سليمان الجريسي ، جامعة الموصل ، كلية الآداب ، أطروحة دكتوراه ، إشراف توفيق ابراهيم : 117 .

(*)ـ كشفت المدونات القديمة أن الفيل قد خرج مع جيش الحبشة ولقد كان قويا وعظيما أسمه محمود ، ولقد قيل إن كان مع الفيل محمود اثنا عشر فيلا آخر وقيل اكثر من هذا العدد ، ينظر الكشاف : 1221 .

[21]. تفسير الرازي : 98 .

[22]. الفاظ الحيوان والنبات في القرآن الكريم : 117 .

[23]. معارج التفكير ودقائق التدبر : 17 .

[24]. ينظر: المنتخب من تفسير القرآن الكريم : 1 / 86 .

[25]. المصدر نفسه : 1/ 87 .

[26]. معارج التفكير : 17 .

[27]. المصدر نفسه : 17 .

[28]. تفسير الرازي : 99 .

[29]. ينظر: تفسير الرازي : 101 ـ 102 .

[30]. معارج التفكير ودقائق التدبر : 15 .

[31]. ينظر: الدراسات الفنية في القرآن الكريم ، موقع الأنترنيت .

المصادر والمراجع

- تفسير أبي السعود إرشاد العقل السليم الى مزايا الكتاب الكريم ، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، د.ت .
- تفسير الكبير ، للإمام الفخر الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط4 ، 2001 .

- ❖ زاد المسـير في علم التفسـير ، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، المحقق عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط1 ، 1422 هـ .
- ❖ شعر الحرب في أدب العرب ، زكي المحاسني ، دار المعارف ، القاهرة ، 1961 .
- ❖ فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسـير ، محمد بن علي بن محمد الشـوكاني ، دار الفكر ، بيروت ، د.ت .
- ❖ الدراسات الفنية في القرآن الكريم ، موقع الأنترنيت .
- ❖ الفواتح الإلهية والمفاتيح الغيبية الموضـحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية ، نعمة الله بن محمود النخجواني . ويعرف بالشيخ علوان ، دار ركابي ، مصر ، ط1 ، 1999 .
- ❖ الكشـاف عن حقائق التنزيل وعبرات الأقاويل في وجوه التأويل ، أبو القاسـم محمود بن عمر الزمخشـري الخوارزمي، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- ❖ مختصـر تفسـير أبن كثير ، اختصـار وتحقيق محمد علي الصـابوني ، دار القرآن الكريم ، بيروت "، ط7 ، 1981 .
- ❖ معالم التنزيل في تفسـير القران ، تفسـير البغوي ، أبو محمد الحسـن بن مسـعود بن محمد بن أنواء البغوي الشافعي ، تحقيق عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط1 ، 1420 هـ .
- ❖ معالم التنزيل في تفسير القرآن ، تفسير البغوي ، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ، حققه وخرج احاديثه محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية ، سليمان سلم الحرش ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ط4 ، 1997 .
- ❖ مفاتيح الغيب ، التفسير الكبير ، أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التميمي الرازي ، الملقب بفخر الدين الرازي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط3 ، 1420هـ .

ـ الرسائل الجامعية:

- ❖ السلاح في معجم لسان العرب ، دراسة أدبية لغوية ، منذر رديف داود ، رسالة ماجستير ، جامعة بغداد ، قسم اللغة العربية ، بإشراف نوري حمودي القيسي ، 1985 .
- ❖ الفاظ الحيوان في العصر العباسي ، عامر أحمد أبراهيم ، كلية الآداب جامعة الموصل، قسم اللغة العربية ، أطروحة دكتوراه، إشراف حسين يوسف حسين ، 1996 .
- ❖ الفاظ الحيوان والنبات في القران الكريم دراسـة دلالية ، فخري احمد سـليمان الجريسـي ، أطروحة دكتوراه ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، إشراف محيي الدين توفيق أبراهيم ، 2002 .
- ❖ النيابة في المفعول المطلق في القرآن الكريم ، دراسة نحوية دلالية ، سالم أحمد ناصـر ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، إشراف عماد عبد يحيى الحيالي ، 2004 .

ـ الدرويات :

- ❖ شـعرية عنوان كتاب السـاق على السـاق في ما هو القريان ، الهادي المطوي ، مجلة عالم الفكر ، مج 238 ، ع1 ، 1999 : 456 .
- ❖ القوس والسهم ، عبد الجبار السامرائي ، مجلة التراث الشعبي ، دار الجاحظ ، وزارة الثقافة ، العراق ، مج 12 ، ع5، سنة 12 ، 1981 .

❖ من أدب الحرب في تراثنا العربي ، أديبة الناصــري ، مجلة التراث الشــعبي ، دار الجاحظ ، وزارة الثقافة ، العراق ، ع2 ، سنة 12 ، 1981 .

References

Al-Baghawi Ash-Shafi'I Abu Mohammad Al-Hasan bin Mas'ud bin Mohammad. *Ma'alim ut-Tanzil fi Tafseer il-Qur'an: Tafseer ul-Baghawai*. Ed. Abdul-Razzaq Mahdi. Beirut: Daru Ihya' it-Turath il-Arabi, 1420 AH.

----------. *Ma'alim ut-Tanzil fi Tafseer il-Qur'an: Tafseer ul-Baghawai*. Eds.Mohammad Abdullah Al-Nimr, Othman Jim'a Dhamiriya and Suleiman Salam Al-Harsh. Daru Tiba, 1997.

Al-Imadi, Abus-So'ud Mohammad bin Mohammad bin Mustafa. *Tafseeru Abis-So'ud: Irshad ul-'Aql is-Slaeem ila Mazaya al-Kitab il-Karim*. Beirut: Daru Ihya' it-Turath il-Arabi, n.d.

Al-Jawzi, Jamaluddin Abl-Faraj Abdul-Rahman bin Ali bin Mohammad. *Zad ul-Maseer fi 'ilm it-Tafseer*. Ed. Abdul-Razzaq al-Mahdi. Beirut: Dar ul-Kitab il-Arabi, 1422 AH.

Al-Jiresi, Fakhri Ahmad Suleiman. "Alfadh ul-.Haiwani Wan-Nabati fil Qur'an il-Karim: Dirasatun Adabiya", Mosul University , College of Arts, 2002

Al-Khawarizmi, Abul-Qasim Mahmud bin Omer Az-Zamakhshari. *Al-Kashaf an Haqa'iq it-Tanzil wa Ibrat il-Aqawil fi Wuuh it-Ta'wil*. Ed. Abdul-Razzaq Mahdi. Beirut: Daru Ihya' it-Turath il-Arabi, n.d.

Al-Mahasini, Zaki. *Shi'r ul-harb fi Adab il-Arab*. Cairo: Dar ul-Ma'arif, 1961.

Al-Matwi, Al-Hadi. "Shi'riyatu 'Inwani Kitab is-Saqi alas-Saq fi Mahuwa al-Qurban". *Majallatu 'Alam il-Fikr*, vol. 238, no. 1, 1999, p. 465.

An-Nakhjawani, Ni'matu-Allah bin Mahmud. *Al-Fawatih ul-Ilahiya wal Mafatih il-Ghaybiyat il-Muwadhihati lil Kala mil-Qur'aniyati wal Hikam il-Furqaniya*. Cairo, 1999.

Ar-Razi, Abu Abdullah Mohammad bin Omer bin Al-Hasan bin Al-Husein at-Tamimi Fakhruddin. *Mafatih ul-Ghaib: At-Tafseer ul-Kabir*. Beirut: Daru Ihya' it-Turath il-Arabi, 1420 AH.

---------. *Tafseer ul-Kabir*. Beirut: Daru Ihya' it-Turath il-Arabi, 2001.

Ash-Shaukani, Mohammad bin Ali bin Mohammad. *Fath ul-Qadir il-Jami' beina Fannei Ar-Riwayati Wad-Dirayati min 'Ilm it-Tafseer*. Beirut: Dar ul-Fikr, n.d.

As-Sabuni, Mohammad Ali. *Mukhtasaru Tafseeri Ibn Kathir*. Beirut: Dar ul-Qur'an il-Karim, 1981.

As-Samarr'i, Abdul-Majeed. "Al-Qawsu was-Sahm" *Majallat at-Turath ish-Sha'bi*, vol. 12, no. 2, 1981.

Dawud, Munthir Radif. "As-Silahu fi Mu'jami Lisa nil-Arab: Dirasatu Adabiyatun Lughawiya". PhD. Dissertation, Baghdad University, College of Arts, 1985.

Ibrahim, 'Amir Ahmad. "Alfadh ul-Haywanu fish-Shi'r il-Abbasi" PhD Dissertation. Mosul University, College of Arts, 1996

Nasir, Salim Ahmad. "An-Niyabatu fi Maf'ul il-Mutaq fil Qur'an il-Karim: Dirasatun Nahwiyatun Dalaliya". Mosul University, College of Arts, 2004.